الحملة الفرنسية على مدينة جيجل سنة 1664

The French Military Campaign against the City of Jijel, in 1664

أ جودي زكريا/ م ودب-ت ع ج/ن ع1

الحملة الفرنسية على مدينة جيجل سنة 1664

The French Military Campaign against the City of Jijel, in 1664

أ جودي زكريا
م ود ب- ت ع ج/ن ع1

ملخص:

كان للحملة الفرنسية على الجزائر بقيادة لويس الرابع عشر نتائج وخيمة بعد محاولته الفاشلة إحتلال مدينة جيجل سنة 1664، وجاء هذا بعد كل المعاهدات المبرمة بين الطرفين، والتي بينت حسن نية الطرف الجزائري في تمتين العلاقات الدبلوماسية مع الفرنسيين.

إلا أن الحقد الصليبي اتجاه المسلمين والطمع في خيرات الجزائر دفعا الملك الفرنسي لخوض هذه المغامرة مدعيا أنها تهدف لتأديب الجزائريين، الذين كانوا يمارسون حقهم الشرعي في الدفاع عن أنفسهم في إطار الجهاد البحري، لعلمهم أن الإيالة كانت محل أطماع الدول الأوربية منذ انضوائها تحت لواء الدولة العثمانية سنة 1519.

الكلمات المفتاحية: لويس الرابع عشر، المعاهدات، جيجل، الجهاد البحري، الإيالة، الدول الأوروبية، الدولة العثمانية.

Abstract:

The military French campaign against Algeria, under the command of LOUIS the 14th, resulted in disastrous consequences to his unsuccessful trial to occupy the city of jijel, in 1664. All that, took place after the conclusion of a number of treaties between the two belligerents and Algeria expressed a sincere will to reinforcing the diplomatic relations with the French.

However, crusades enmity for Muslims and the greediness for the Algerian wealth had incited King of France to go into the adventure, claiming that it will educate the Algerians who had the right to defend themselves in an environment of maritime Jihad. They, already, know that the regency was desired by the European countries since its annexation to the Ottoman Empire, in 1519.

Keywords: LouisXIV, the treaties, Jijel, maritime jihad, the regency, European countries, the Ottoman Empire

مقدمة:

كانت العلاقة بين الجزائر وفرنسا خلال الفترة العثمانيّة مبنيّة على طبيعة النّوايا الحقيقيّة لكلا الطّرفين، إذ أنه بالرّغم من إبرام عدّة معاهدات فإنّ الوضع لم يكن مستقرّا تماما وعلاقتهما كانت تتأرجح بين حالتي السّلم والحرب[1]، ومن بين هذه المعاهدات معاهدة 19 ماي 1628[2]، ومعاهدة السّلم والمعاهدة الخاصّة بالباستيون في 7 جويلية 1640، ومعاهدة 29 فبراير 1661. وعلى ضوء هذه المعاهدات فإن الجزائر قدّمت العديد من الامتيازات للطرف الفرنسي في استغلال مواقع الباستيون في كل من القالة والقل وبونة في صيد المرجان والتّبادل التّجاري، والحفاظ على العلاقات الحسنة، إلا أن الجانب الفرنسي كان له أطماع أخرى اتجاه الجزائر وهذا بسبب موقعها الاستراتيجي الهام، إلى جانب العامل الديني المتمثل في الحقد الصليبي عليها.

كانت الحملة على مدينة جيجل أولى المحاولات العدوانية على الجزائر في فترة حكم لويس الرابع عشر Louis 14 (1661–1715)[3]، تهدف إلى احتلال الجزائر على عكس ما زعمت بأنها جاءت لتأديبهم وكبح جماح البحرية الجزائرية.

وعلى ضوء هذا يمكننا طرح هذه التساؤلات :

ما طبيعة سياسة لويس الرابع عشر اتجاه الجزائر ؟، وما الظروف والأحداث الداخلية والخارجية الفرنسية قبل حملتها على جيجل ؟، ولماذا وقع الاختيار على مدينة جيجل دون غيرها ؟، وماهي تجهيزات الجانب الفرنسي لهذه الحملة ؟ وكيف كانت ردة فعل الجانب الجزائري ؟، وماانعكاسات هذه الحملة على الجانبين ؟.

1- سياسة لويس الرابع عشر اتجاه الجزائر :

لقد كانت سياسة الملك لويس الرابع عشر عند اعتلائه الحكم عدوانية اتجاه الجزائر حيث كان هدفه الرئيس القضاء على الأسطول الجزائري، فأصبحت الحرب ميزة العلاقات الجزائرية الفرنسية[4]، ولعب الجانب الديني دورا مهما في توجيه سياسته، حيث يذكر السفير فندال Vandale في مذكراته 1670–1680، أن العشر سنوات الأولى من حكمه الفردي كانت منعرجا حقيقيا في سياسة فرنسا الخارجية، حيث كان يعتبر نفسه حامي المسيحية ضد الإسلام[5]. ويذكر فيدال Vidale أن سياسة لويس 14 تقوم على الاعتداء على الدول الإسلامية، ومثال ذلك فرسان مالطة، حيث أن هؤلاء القراصنة الذين يعتبرون من رعايا الملك كانوا يحملون الصليب في صدورهم على حسب تعبيره[6].

لم يكن الجانب الديني الدافع الوحيد الذي كان تأثيره جليا في سياسة لويس الرابع عشر اتجاه الجزائر، حيث كان الطمع في ثرواتها يمثل حافزا آخر رغّبَ الفرنسيين في احتلالها، وهذا ما تجسد مع بداية التخطيط لبدء حملة تعود بالنفع على فرنسا من خلال نهب خيرات الجزائر، لذلك فقد كان الوزير كولبير Colbert شديد الاهتمام بإحياء التجارة الفرنسية مع البلاد الإسلامية وتأسيس إمبراطورية استعمارية فيما وراء البحر، وما كان ذلك ليتحقق ما دامت بحرية الجزائر القوية صاحبة سلطة ونفوذ واسع في البحر المتوسط، فقد جرى الاهتمام بوضع الخطط لتحطيمها والعمل على احتلال الإيالة

الجزائرية بالكامل، ومنذ عام 1658تم إرسال بعض الجواسيس إليها لدراسة أوضاعها واختيار المكان المناسب لتجسد مخططاتهم[7]، وهذا ما نستنتجه أيضا من كتابات هذه الفترة مثل بول شوفالييهPaul Chevalier، الذي أعد تقريرا مفصلا حول هذه المخططات التي يذكر فيها الإمكانيات المسخرة لهذه الحملة والاستراتيجية المراد إتباعها، وقام بوصفها، فقال: (**... العرب عندهم اليقين أن في جبالهم كمية كبيرة من الذهب والفضة في الحدود مع ليبيا...**)[8]، كما ذكر أن الملك سيقوم بخدمة جليلة للمسيحية «انتقاما» من «البربر».

يمكننا أن نتبين من خلال هذين العاملين (الجانب الديني، والجانب الاقتصادي) تأثيرهما البالغ في تحديد سياسة لويس الرابع عشر، إضافة إلى رغبته الملحة في تحقيق أطماعه التوسعية ضد إيالة الجزائر، وهذا ما يفسر حروبه العديدة ضدها، لإعادة مجد أوربا المسيحية من خلال حربه الدؤوبة ضد الإسلام. هذا الوضع المشحون بالحقد الصليبي والرغبة في نهب الخيرات، دفع بلويس الرابع عشر لخوض غمارهذه الحرب، وفي هذا الصدد يذكر بيكافيPicavet: «**...لا يمكن فصل الحرب الصليبية التي خاضها لويس الرابع عشر عن الوضع المميز آنذاك، وبعبارة أخرى أن تلك الحروب يجب نسبتها إلى روح العصر أكثر من نسبتها لتفكير لويس الرابع عشر نفسه...**»[9].

كمايمكننا أيضا أن نلاحظ النزعة الاستعمارية في سياسته الخارجية، فالمعروف عن عصره أنه كان لا يخلو من الصراعات الخارجية مع الدول الأوروبية على غرار ما كان يحدث مع الجزائر، وهذا ما نستخلصه من كتابات الفرنسيين أنفسهم حيث نجد بيكافي يفسر سياسة لويس الرابع عشر على أنه لم يكن له أطماع لإعادة الحدود الطبيعية لبلاد الغال فقط بعكس ما ذهب إليه صورالSorel، ودليل ذلك حربه ضد إسبانيا[10]. ونستشف هذه النزعة الاستعمارية لملك فرنسا وتدخله في الجزائر من خلال الحملة التي شنها على مدينة جيجل.

2- الظروف والأحداث السابقة للحملة على مدينة جيجل:

بعد حروب الاسترداد أصبحت مدينة جيجل على غرار غيرها من المدن الساحلية عرضة لانتقام الدول المسيحية الأوروبية، التي كانت طامعة في إقامة مستوطنات في ساحل البحر الابيض المتوسط في شمال إفريقيا لنهب الثروات، وكبح جماح البحرية الجزائرية التي كانت تقوم بالدفاع عن الجزائر في إطار الجهاد البحري ضد اعتداءات هذه الدول الأوروبية، إلى جانب الحقد الصليبي والذي سبق لنا ذكره والذي كان يمثل دافعا لمحاربة الإسلام والمسلمين هذا الحقد الي كانت تتسم به سياسة ملك فرنسا اتجاه الجزائر، حيث كان يعلم أنه باحتلالها سيوجه ضربة موجعة للدول الإسلامية، وقبل التعرض إلى هذا الاعتداء وجب علينا التطرق إلى الأحداث الداخلية والخارجية التي ميزت الجزائر في تلك الفترة.

2-1- الظروف الداخلية:

شهدت الجزائر ظروفا سياسية خاصة من فترة الباشاوات(1587–1659)إلى فترة الأغاوات(1659–1671) وهذا نتيجة الاضطرابات السياسية بعد إسقاط نظام الباشاوات وتأسيس نظام الأغاوات، فقد عقد ضباط الجيش الانكشاري اجتماعا بحثوا فيه ضعف نظام الباشاوات المعينين كولاة لإدارة الشؤون الجزائرية من طرف السلطان العثماني[11]، حيث كان

يقضي نظام الباشوات بتعيين الباشا مدة ثلاثة سنوات وهذا الوقت لم يكن كافيا للباشا للحكم والتسيير، فكان ينصرف إلى السلب والنهب وجمع الثروة قبل عودته إلى إسطنبول، وهذا ما دفع باليولداش أن يثوروا عليهم، وبعد خلع الباشا تم تعويضه بقائد آخر يطلق عليه إسم الآغا[12].

هذا وقد جاءت الحملة الفرنسية على مدينة جيجل في عهد الآغاوات أثناء فترة حكم شعبان آغا (1661–1665)[13]، حيث اضطر ضباط الجيش الانكشاري إلى تمديد فترة حكمه إلى ثلاث سنوات بعد أن كانت شهرين، ليتمكنوا من الصمود أمام إتحاد الدول المسيحية الأوربية ضد الأسطول الجزائري[14].

ومن أهم الأحداث التي ميزت الظروف الداخلية للجزائر في هذه الفترة إصابتها بوباء الطاعون، الذي انتشر في الجزائر ولاعتقاد الفرنسيين بفراغ الحامية الجزائرية من الداخل، حيث يرى كولبير أن الطاعون الذي ضرب الجزائر سنة 1663 تسبب في وفاة عدد كبير من السكان لدرجة أن الأراضي الداخلية قد أصبحت فارغة فقاموا بهذه الحملة مستغلين هذا الظرف للقضاء على الجزائر وأسطولها

2-2- الظروف الخارجية:

المعاهدات مع فرنسا :

يجدر بنا هنا ذكر الظروف السائدة في الفترة التي سبقت هذه الحملة، من خلال المعاهدات التي تم توقيعها بين الطرفين حيث تتنافى مع الطرح الفرنسي وأنهم قاموا بهذه الحملة «لتأديب» «القراصنة» الجزائريين، هذه المعاهدات تعتبر حقائق تاريخية ووثائق شاهدة على جدية الطرف الجزائري مقابل سوء نية وخداع الفرنسيين.

كانت هذه المعاهدات تقضي بالسماح بإقامة مستودع كبير للتجارة (وقد استخدمت كلمة باستيون للدلالة على هذا المستودع)، غير أن الفرنسيين فسروا كلمة المستودع بمعنى حصن، ورغبوا في تحويله إلى قلعة عسكرية لحماية تجارتهم، كما أصبح المشروع على يد هنري الرابع ملكية للدولة وأصبح رئيس الباستيون موظفا ملكيا، إزاء هذه المخالفات أمرت حكومة الجزائر بتدمير الباستيون سنة 1604م، وهو الأمر الذي أدى بتدخل فرنسا لدى السلطان العثماني لإعادة إنشائه دون جدوى، كما أرسلت فرنسا مبعوثا إلى الجزائر لإعادة الامتياز ولكنه فشل في مسعاه[15].

أما في عهد لويس الرابع عشر فقد عقدت معاهدتا **السلم وامتياز استغلال الباستيون في 7 جويلية 1640**، وتمت هذه المعاهدة مع السيد جون بابتيست دوكوكيالjean Baptiste De Coquiel الذي كان يقوم باستغلال الباستيون، وهو عقد شخصي أي عقد بين دولة وخاص، أما المستخدمين الفرنسيين فكانوا يخضعون بحكم كونهم رعايا فرنسيين إلى ترتيبات بنود معاهدة السلم، بعد الحالة التي كان يعيشها الطرفان الجزائري والفرنسي الشبيهة بالحرب، بحكم الأعمال العدائية التي كانت بين الطرفين[16].

عقدت معاهدة أخرى في عهد لويس الرابع عشر **معاهدة إمتياز استغلال الباستيون لسنة 1661**، بعد المعاهدة التي سبقنا ذكرها بين دو كوكيال والجزائر، تخلى هذا الأخير عن منصبه لتوماس بيكي Thomas Piquetتاجر من مدينة ليون، كان هذا التاجر يستعمل الغش والخداع مستغلا ثقة سكان الجزائر بالتجار الفرنسيين وأخذ البضائع الثمينة دون تسديد المقابل ثم فر من الباستيون سنة 1658 بعد أن نهب محتوياته واختطف حوالي ثمانين شخصا من الجزائريين في سفن القراصنة الأوروبيين[17]،

ثم أبرمت هذه المعاهدة بين روميناك والجزائر، لتأكيد ما جاء في نص المعاهدة السابقة واستعادة نشاط الباستيون في المسكاريس(القالة) والرأس الحمراء وميناءي القالة وبونة والأماكن الأخرى التابعة له[18].

كان كل شيء على ما يرام حسب ما يبدو بين الطرفين بعد إبرام هذه المعاهدة، التي تبرز التسهيلات والامتيازات التي قدمها الجزائريون، لولا القرار الذي اتخذه لويس الرابع عشر بإرسال حملة على مدينة جيجل

الحملة الأوروبية على الجزائر:

كانت أعمال القراصنة الجزائريين شرعية اتجاه الحملات الأوروبية العدوانية على سواحل الجزائر، إذ تشير بعض التقديرات إلى أن رياس البحر استولوا، في الفترة الواقعة بين 1613 و1621، على 936 قطعة بحرية، 447 قطعة منها كانت هولندية، 192 فرنسية، 120 إسبانية، 56 ألمانية[19]، وهذا راجع لعلم الجزائريين لما كانت تخطط له ليس فرنسا فقط، بل معها الدول الأوروبية التي كانت لها أطماع في خيرات الجزائر إلى جانب الحقد الصليبي اتجاه الجزائر وهذا ما استنتجناه من سياسة لويس الرابع عشر الإستعمارية سابقا .

بعد أن تعرضت سفن هذه الدول للقرصنة في البحر الابيض المتوسط قررت أربعة دول أوروبية وهي: فرنسا وانجلترا وهولاندا والدويلات الإيطالية القضاء كلية على الأسطول الجزائري الذي كبد هذه الدول خسائر فادحة ففي خريف سنة 1661 استولى الاسطول الجزائري المؤلف من حوالي ثلاثين سفينة على اثنى عشرة سفينة انجليزية وتسع سفن هولندية واثني عشرة سفينة فرنسية وايطالية، وعلى إثر هذه العمليات قررت هذه الدول تدمير واحتلال المدن الساحلية، فكلف الاسطول الفرنسي بالناحية الشرقية، فقاموا بتقسيم اسطولهم إلى جزئين : الجزء الاول بقيادة الكومندور بول paul بقصف ميناءي القالة وعنابة.

أما الجزء الثاني فبقيادة الدوق دي بوفور Duc de Beaufort فقصف ميناء استورة، ثم اتجه نحو مدينة الجزائر للالتحاق بالأسطولين الإنجليزي والهولندي، أما الأسطول الإنجليز يفقد قام بتخريب ميناء بجاية وأسر اربع سفن جزائرية في عرض البحر وإتجه بعدها إلى الجزائر للالتحاق بالآخرين حسب الاتفاق المبرم بينهم، أما الهولنديون المكلفين بمحاصرة مدينة الجزائر فقد خانوا الطرفين الإنجليزي والفرنسي وفضلوا مهادنة رياس البحر، وتبعهم بذلك الإنجليز الذين تأكدوا من استحالة القضاء على الاسطول الجزائري وتوصلوا إلى عقد الصلح، أما الفرنسيون فقد فضلوا العمل وحدهم فقرروا بقيادة الملك لويس الرابع عشر احتلال مدينة جيجل كقاعدة أولية لاحتلال بقية المدن الساحلية[20].

3- الاستعدادات العسكرية للحملة:

إن اختيار مدينة جيجل للقيام بالحملة، لم يكن عبثا بل له أسبابه، وجاء نتيجة لعمل وخطط استخباراتية من الفرنسيين على السواحل الجزائرية لإيجاد منطقة يمكن القيام فيها بإنزال القوات الفرنسية، وقد كانت هذه الخطط الاستعمارية في عهد الوزير مازاران Mazaran الذي لم يكن قادرا على فرض السيطرة العسكرية على شمال إفريقيا طالما كانت المملكة الفرنسية في حرب مع إسبانيا، ولكن مع ذلك اقترح مازاران أن يستولي الملك على أحد الموانئ الواقعة في الساحل الإفريقي يمكن استخدامه كنقطة ملاحظة ومراقبة بحرية للمنطقة، وقد رجع لويس الرابع عشر إلى هذه الفكرة بعد وفاة مازاران سنة 1661، خاصة عندما جعل الإنجليز ميناء طنجة تحت سيطرتهم، حيث اقتنع الفرنسيون بهذه الفكرة ليوازنوا به الموقع الإنجليزي[21].

كان لظهور شخصية كولبير كوزير للويس الرابع عشر للشؤون المالية والبحرية والتجارية الذي كان محل ثقة مازاران ووكيله، الأثر الكبير في تحقيق هذه المخططات على أرض الواقع، وقد حذر الفارس بول Chevalier Paul، وهو فرنسي من فرسان القديس يوحنا أحد قادة الأسطول الحربي الفرنسي من امتلاك الجزائريين ما بين أربعين وخمسين سفينة حربية تحمل بين خمسة وعشرين وخمسين مدفع لكل منها، وجميعها تمتاز بالسرعة في المناورة مما تشكل خطرا دائما، أما كولبير فيرى أن الطاعون الذي ضرب الجزائر سنة 1663 تسبب في وفاة عدد كبير من السكان لدرجة أن الأراضي الداخلية قد أصبحت فارغة[22]، ولتحقيق هذه المخططات قام أحد مستشاري لويس الرابع عشر سنة 1658، وهو ميشال لوتيلي Letelier Michel بتكليف أحد الفرسان دي كلير فيل chevalier De Clair Ville من مهندسي تحصينات الجيش الفرنسي في الشروع بعملية استخباراتية في السواحل الجزائرية[23].

وفي سنة 1661 جاء الجاسوس دي كليرفيل متخفيا على متن سفينة تجارية بأمر من الملك لتفادي شكوك الحكومة الجزائرية والأهالي معا[24]. وفي الأخير قدم إفادته لكولبيرفي شكل تقرير وضّح فيه أهم المناطق التي يمكن للقوات الفرنسية أن تنزل بها، فاقترح عليه مدينة عنابة التي كان يراها صالحة لتشييد حصن دائم، ثم يليها ميناء ستورة(القل) من حيث الأهمية، ويستنتج من نص التقرير أن جيجل التي وقع الاختيار عليها في الأخير لم تكن من المناطق المقترح احتلالها لكون مينائها غير صالح حسب رأيه[25]. كما يذكر شارل فيرو: «**...وبعد تردد طويل بين بونة وسطورة وبجاية وجيجل، قررت الحكومة الفرنسية أخيرا احتلال الموقع الأخير سنة 1663، وقد استشير ضباط البحرية الأكثر تميزا، ومن بينهم دوكان duquesne، وكانت آرائهم بإمكانية الإقامة فيه بنفقات بسيطة، فهو مرسى جيد، قادر على استيعاب خمس عشر سفينة، اثنتا عشر منها مراكب شراعية**»[26].

اتخذ المجلس الملكي قراره النهائي باحتلال مدينة جيجل، وكانت التحضيرات للحملة في ربيع 1664، حيث انطلقت الحملة من ميناء طولون Toulon **(أنظر الملحق رقم 1)** في 2 جويلية 1664، توقفت في جزر الباليار أياما أين التحقت شواني مالطا Les Galeres DeMalte أو فرسان مالطا كقوة بحرية وفيما يخص الجيش البري تحت قيادة الدوق دي

بوفورتDe Beaufort كان مكونا من ستة فرق حراسة وعشرين فرقة من أفواج البيكاردي، نافار، نورماندي ومن الحرس الملكي[27] **(أنظر الملحق رقم 2)**. عين الدوق دي بوفورت قائدا للحملة، الفارس بول كقائد للسرب، تحت إمرته: دوكين (Duquesne)، وقاباريت (Gabarets)، ودي أردنت (Des Ardents)، وفيفون (Vivonne). وجعل دوكرفيل (De Clerville)، مسؤولا عن قطاع الهندسة العسكرية.

وعين الجنرال قادان (Gadagne) العسكري المحنك صاحب 46 سنة على رأس الفرق العسكرية. وعين فيفون مارشالا للمخيمات العسكرية، وعضوا في المجلس الحربي للدوق، والواقع أنه عين لويس الرابع عشر في قلب الحملة.

ضمت القوات الاستكشافية 1200 من رجالة مالطا ركبت المراكب النظامية، و800 من رجالة أفواج السفن، وهي تعادل مشاة البحرية حاليا، و4500 مشاة من نخبة الفوج الخامس.

في 19 جويلية ظهر الدوق دي بوفور في سواحل الجزائر**(أنظر الملحق رقم 3)** بستين سفينة منها ستة عشر سفينة حربية واثنتا عشرة سفينة وتسعة وعشرين سفينة نقل وسفينة حرّاقة un Brûlot، تحمل هذه السفن حوالي سبعة آلاف رجل، وفي 21 جويلية 1664 تحت أوامر الكونت دو قادان De Gadagne رست سفن الحملة في مدينة بجاية، حيث أعطيت الأوامر الخاصة باحتلال المدينة ما قوبل بمعارضة من طرف قادة الجيش مساندين رأي الفارس دوكليرفيل الذي اقترح مدينة جيجل، (أنظر الملحق رقم (4 والذي اعتبره الكاتب دو غرامون Henri Delmas De Gramont أسوء مهندس للحملة[28].

4- مجريات معركة جيجل 1664 :

وصلت الحملة قبالة مدينة جيجل يوم 22 جويلية على الساعة السابعة مساء حيث تعرض الجيش الفرنسي إلى مقاومة شرسة من الجزائريين الذين استخدموا طلقات مدافعهم لصد الهجمات، ورد عليها قائد الحملة بوفورت بقذف المدينة بمدفع الكور. وفي اليوم الموالي تم الإنزال شرق مدينة جيجل بالقرب من أحد الجوامع - (جامع سيدي عمار) - الذي حول فيما بعد إلى حصن الدوكين، لكن مقاومة الجزائريين كبدت الفرنسيين خسائر قدرت بما يقارب أربعمائة قتيل، ومع ذلك فقد احتل الجيش الفرنسي المدينة باستخدام ضربات المدفعية وقاموا برفع الصليب والعلم الفرنسي فوق منارة الجامع[29]. كانت أولى الفرق التي نزلت فرقة البيكاردي بقيادة دو فيفون وتتبعها فرق الحراسة وفرسان مالطة بقيادة دو كادان، وبعد المقاومة الشرسة من طرف القبائل سقطت المدينة في يد الفرنسيين على الساعة الثالثة مساءا بتاريخ 23 جويلية 1664، كانت الأيام الأولى من الإنزال تبدو هادئة ولكن مغامرة جنود الحملة خارج معسكرهم كادت تكلفهم غاليا حيث كانت القبائل تترصد تحركاتهم وتهاجمهم بكثرة حاول الفرنسيون بكل الطرق إقناع شيوخ القبائل بالوقوف إلى جانبهم لكن بدون جدوى خاصة بعد أن استولى الفرنسيون على مواد للبناء في مقبرة للمسلمين لاستعمالها في بناء برج في جبل القرن ما زاد من غضب القبائل، الذين انضموا إلى القوة العسكرية العثمانية المبعوثة من الجزائر للدفاع عن جيجل، أما من الجانب الفرنسي فقد عمت الفوضى بعد الخلافات التي كانت بين قائد الحملة دي بوفور ودوكادان مما عطل في إنجاز وإكمال أشغال

التحصينات الدفاعية، وبعد علم لويس الرابع عشر بهذه الخلافات أمر الدوق دي بوفور بترك القيادة لدوكادان الذي كانت له مهمة تحصين المدينة والمكوث فيها، وفي شهر أكتوبر شن الجزائريون هجوما على الفرنسيين المتحصنين في برج من الناحية الغربية ورغم نجاح الفرنسيين في التصدي لهذه الهجمة إلى أنهم خسروا ضباطا : Cadillan كاديلان نقيب في فرقة النورماندي، Saint marthe سانت مارت نقيب في فرقة نافار، Girardier جيراردي ملازم أول في فرقة البيكاردي وثلاثين من الجنود بين قتلى وجرحى[30].

22 من شهر أكتوبر وصلت تدعيمات من فرنسا مكونة من سفن تحت قيادة ماركيز مارتل دو كاستيلان le mar-quis de martel .de castellan قائد فرقة البروفانس Provence بعد وصول تقارير عن الخلافات بين دو كادان ودو بوفور، هذا الأخير الذي كان يعلم بوصول تدعيمات للجيش الجزائري ولكنه أخفى ذالك على دوكادان الذي كان يرى أنه يجب على الجيش الفرنسي أن يبقى متحصنا في المدينة وأن لا يشن أي هجوم على الجزائريين عكس دوبوفور الذي كان يريد أن يشن الهجوم، أما الدوق دوبوفور فقد ابحر يوم 27 من أكتوبر بعد ان وصلته أوامر من لويس الرابع عشر التي تنص على أن يقوم بمهاجمة مدينة الجزائر وهذا لتشتيت قوات الجيش الجزائري لكنه عوض ذلك أبحر اتجاه تونس.

في يوم 29 من نفس الشهر قامت القوات الجزائرية بالهجوم مداخل المدينة والبرج الموجود في الناحية الغربية الذي استعاده الجزائريون بعد ثلاث ساعات، وصلت بعدها مدافع القوات الجزائرية إلى مخيم الفرنسين نفسه، وبذالك اصبح موقف الجيش الفرنسي حرج، وبعد أن عقد قادة الجيش الفرنسي اجتماعا مع دوكادان توصلو إلى أن الحل الوحيد هو العودة إلى فرنسا، في صبيحة 31 أكتوبر بدأت عملية إخلاء المرضى والجرحى الذي قدر عددهم ب1200، لكن القوات الجزائرية واصلت الهجوم على الفرنسيين، حيث أصبحت عملية الإخلاء بمثابة فرار تحت نيران الجزائريين[31].

5- نتيجة المعركة:

يذكر غرامون أن في 29 من أكتوبر فتحت البطاريات الجزائرية النار على الفرنسيين وفي 30 من نفس الشهر تمت إبادة صفوفهم ومحاصرة وأسر فرقهم الذين كانوا تحت نيران الجزائريين متوسلين بوقف المعركة وأنهم سيصبحون عثمانيين، كما كان فرار الجيش الفرنسي من المعركة بمثابة استسلام تاركين مدافعهم، ملابسهم، وجرحاهم، وخسارة ألف وأربعمائة قتيل على أرض المعركة[32].

6- انعكاسات الهزيمة في جيجل وأثرها على الفرنسيين:

تلقت فرنسا في مدينة جيجل هزيمة نكراء كانت عواقبها وخيمة عليها، فقد علم الفرنسيون أن أطماعهم في خيرات الجزائر كانت صعبة المنال بسبب دفاع الجزائريين عنها، وكان فشل الحملة ضربة موجعة للفرنسيين حطمت معنوياتهم وهو ما نستشفه من رسالة الأسير لوقرانLegrand لأخيه التي يروي فيها أثر الهزيمة الكبير في نفوس الفرنسيين «**... إن الشعور بالفخر والاعتزاز هو على أشده فهم يعتقدون بكونهم ملوك العالم، ونحن لا نتجرأ على رفع أعيننا، فالأطفال يقذفوننا بالحجارة**

والرجال والنساء يهددوننا إلا بجيجري(جيجل) وأنهم يقولون ويكررون، إياك وجيجري(جيجل) فإن الرؤوس تقطع هناك بالمناجل وهذه العبارات يترنمون بها في شكل أغنية يرددونها باللغة الفرنكاوية وبلغة البلاد. إنني أعتقد أن لهم الحق في ذلك على اعتبار أننا أعداء في الجنس والعقيدة لكن يجب أن ترى سخرية الإسبان التي لا تحتمل في الواقع، فهم يقولون أشياء بشعة في حق الملك وعلى كل الأمة...»[33] .

لكن كارثة الحملة لم تتوقف عند هذا الحد، إذ ما إن وصلت إلى طولون حتى وجدت هذه المدينة تعيش على وقع وباء الطاعون، وبعد أن سار الأسطول الفرنسي إلى جزر هيير (Les iles d'Hyères) التي كانت تعرف بالجزر الثلاث في المؤلفات العثمانية، غرقت الفرقاطة المعروفة بإسم القمر(La LUNE) **(أنظر الملحق رقم 5)**، وغرق معها أحسن ضباط دي بوفورت قائد الحملة[34]. هذه السفينة التي عبّر الملك لويس الرابع عشر عن مدى حزنه الشديد لفقدانها وغرق ضباطها وجنودها في رسالة للدوق دي بوفورت مؤرخة بتاريخ21 نوفمبر 1664[35].

لقد كانت خيبة الملك كبيرة جدّا بعد هذه الهزيمة المذلّة وهذا ما نستنتجه من رسالة موجّهة إلى السيد دو شامبيني De Champigni مؤرّخة في 16 نوفمبر 1664[36]، يطلب فيها تقريرا مفصّلا عما حدث في جيجل وأسباب الهزيمة، وخوفا من انتشار أخبار الهزيمة بأوربا، أعطى الملك المهزوم أمرا إلى الصّحافة يقضي بالتزام الصّمت فيما يخصّ قضيّة جيجل[37].

7- معاهدة 1666:

بعد هذه الهزيمة المخزية لفرنسا على السواحل الجزائرية، لم يبق للملك لويس الرابع عشر إلا سبيل عقد السّلم مع الجزائر في إطار معاهدة 1666، كما صادف إبرام هذه المعاهدة اندلاع الحرب بين هولندا وانجلترا، والتي تَلزَّم على فرنسا الوقوف فيهاإلى جانب هولاندا بموجب المعاهدة المبرمة بينهما سنة 1662، مما اضطرّها إعلان الحرب على إنجلترا في شهر جانفي سنة 1666، وكانت أشدّ إدراكا أن هذا الصراع سيكون مسرحه المناطق البحرية، لهذا السبب سعت إلى ضمان حياد الجزائر التي كانت تشكل قوة بحرية لا يستهان بها بإمكانها ترجيح كفة طرف على الآخر، ولهذا السبب أبرمت هذه المعاهدة في تاريخ السابع عشر ماي سنة 1666[38].

وقد تضمنت هذه المعاهدة 12 بندا من أهم ما جاء فيها: وقف كل الاستفزازات والأعمال العدائية سواء في البحر أو على البر، كما يمنع على بحارة الجزائر تفتيش المراكب الفرنسية سواء القادمة من الشرق أو من البحار الغربية، كما يمنع تسليح أي سفينة في الموانئ الفرنسية لغرض الهجوم على السفن الجزائرية، وإن حدث وأن أقدم أحد الفرنسيين على هذا الفعل فإن الملك يستنكر ذلك ويتعهد بعدم منحه اللجوء إلى موانئه، ولن يسمح باقتياد الأسرى الجزائريين إليها، وإن حدث ذلك فإن الملك سيقوم بإطلاق سراحهم ورد أمتعتهم وحوائجهم، وإذا حدث وإن سيق فرنسيون بالقوة إلى موانئ مدينة وإيالة الجزائر من طرف قراصنة ممالك وبلدان أخرى فإنه سيطلق سراحهم وترد إليهم كل أمتعتهم، إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الموجودين في مملكة الجزائر، والذين أسروا تحت أي راية كانت وكذلك الذين يحتمل أن يؤسروا في المستقبل، كما تقوم فرنسا بمثل ذلك اتجاه الجزائر بالنسبة للذين أسروا (في) سفن مدينة وإيالة الجزائر، في حال التقاء السفن والمراكب

سواء الحربية أو الناقلة للسلع والبضائع التابعة لطرف أو لآخر، تتبادل الوثائق وتتعارف على بعضها البعض، عن طرق إرسالها بالقوارب[39].

خاتمة:

كانت سياسة لويس الرابع عشر اتجاه الجزائر استعمارية، مبنية على الأطماع في خيرات الجزائر إضافة إلى الحقد الصليبي تجاهها، وفي سبيل تحقيق مبتغاهم في احتلال الإيالة الجزائرية قام الفرنسيون بالتحالف مع الدول الاوروبية المسيحية: هولندا، انجلترا، ودويلات إيطاليا، مدعين أنهم قاموا بهذه الحملة لغرض تأديب القراصنة الجزائريين الذين قاموا بأعمال القرصنة في إطار الجهاد البحري والدفاع عن الجزائر لعلمهم بأطماع هذه الدول الاوروبية لكن فرنسا أصبحت وحدها في هذه الحملة، بعد انسحاب باقي الدول، فكانت الهزيمة للفرنسيين في مدينة جيجل أول فشل لهم في احتلال الجزائر لها عواقب وخيمة على الفرنسيين وعلى الدول الأوروبية.

1- كانت الحملة تعتبر أول محاولة لاحتلال الإيّالة الجزائرية.

2- بعد كل المعاهدات التي أبرمت بين الطّرفين، تبين أن الجانب الجزائري كان صادقا في نواياه من أجل تمتين العلاقات مع الفرنسيين. قوبل ذلك من طرف الفرنسيين بهذه الحملة العدوانية على مدينة جيجل.

3- كان الطمع في خيرات الجزائر دافعا قويا للملك الفرنسي لخوض هذه المغامرة لاحتلال مدينة جيجل في سبيل «تأديب الجزائريّين» كما يدعيه، الذين كانوا يمارسون حقهم الشّرعي في الدّفاع عن أنفسهم في إطار الجهاد البحري، لعلمهم أن الإيالة كانت محل أطماع الدول الأوربية قاطبة منذ انضوائها تحت لواء الدولة العثمانية سنة 1519 كحرب الثلاثمائة سنة التي خاضتها ضد إسبانيا.

4- على غرار الأطماع في ثرواتها، كان الحقد الصّليبي دافعا آخر للفرنسيّين للقضاء على الإيالة الجزائرية من خلال هذه الحملة. ولعل تعاملها غداة الاحتلال مع المساجد بتحويل نشاطها أو تهديمها كأولى الأفعال المقترفة في حق المدن الجزائرية لخير دليل على ذلك.

5- بيّن الجزائريّون من خلال تلاحمهم وتوحّدهم لصدّ هذه الحملة قدرتهم على هزيمة الفرنسيّين في المعركة وتكبيدهم خسائر كبيرة.

6- إلى جانب القوّة البحرية، بيّنت الإيالة أنها كانت تملك جيشا برّيا قويّا بيّن مدى قدرته في الدفاع عن كل شبر منها.

7- كانت انعكاسات هذه الهزيمة على الفرنسيّين وملكهم وخيمة بغرق فرقاطة (القمر)، كما أُجبروا على عقد السلم في إطار معاهدة 1666.

8- أصبحت الجزائر تمثل قوة إقليمية لا يستهان بها لقرون، يعمل لها ألف حساب سواء عند التفكير في احتلالها أو من خلال السعي لضمان حيادها في الصراعات القائمة بين الدول الأوروبية، والتي كان مسرحها البحر الأبيض المتوسط.

. ملاحق:

الصورة رقم1

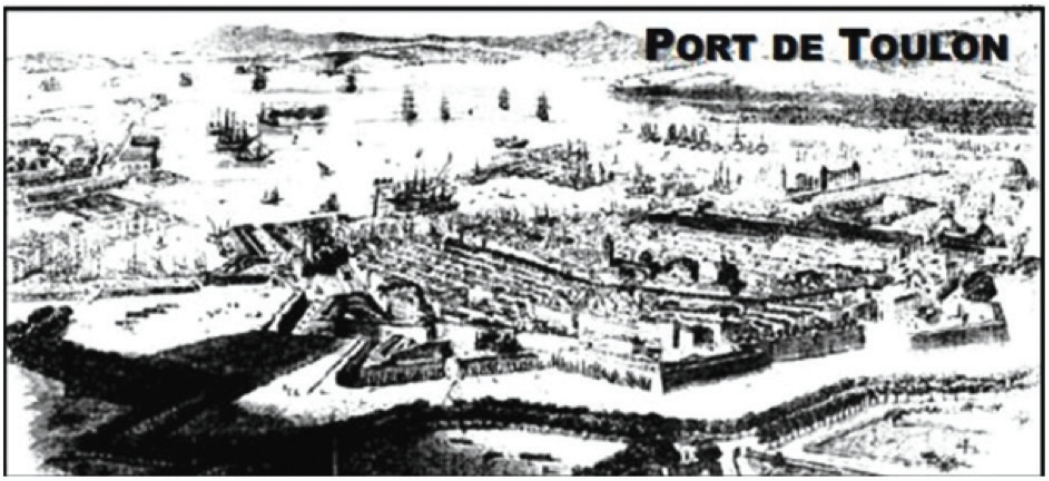

ميناء مدينة طولون

Jean pierre nayneaud, l'expedition ou le roi soleil perdit sa ''lune'', p8

الصورة رقم 2

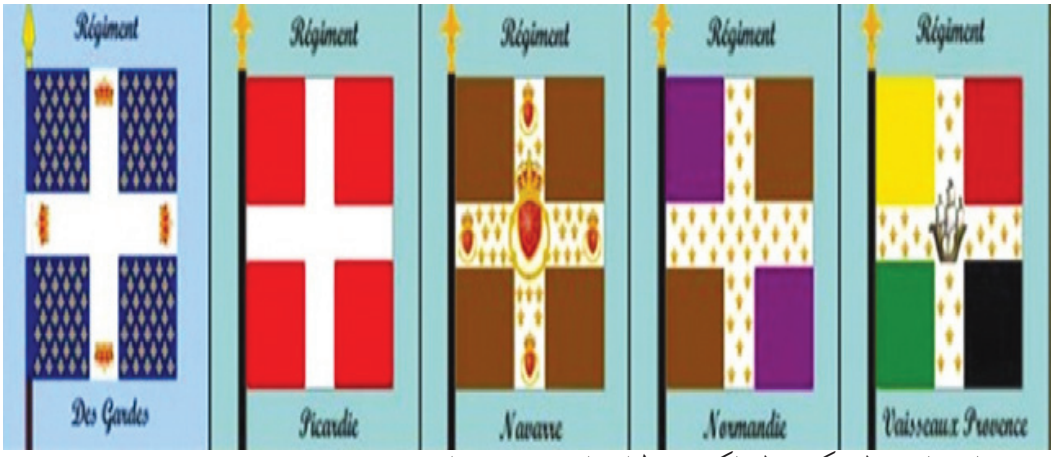

رايات الفرق العسكرية المشاركة في الحملة على مدينة جيجل

Jean pierre nayneaud, l'expedition ou le roi soleil perdit sa ''lune'', p10

الصورة رقم 3

prise de gigeri en 1664 l'expedition française de duc de beafort Wikipedia.org

الصورة رقم 04

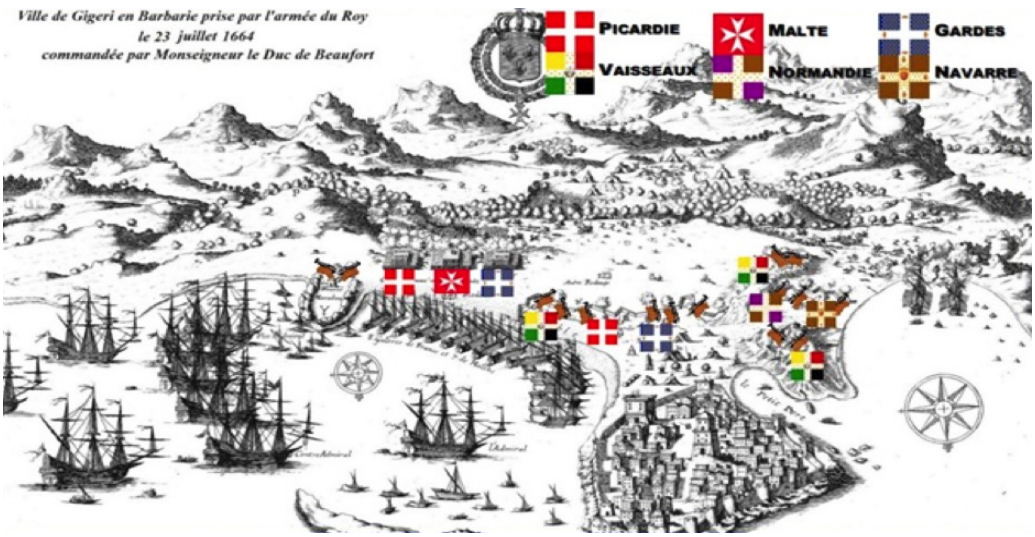

صورة تمثل تموقع الفرق العسكرية الفرنسية في ساحل مدينة جيجل

Jean pierre nayneaud, l'expedition ou le roi soleil perdit sa ''lune'', p10

الصورة رقم 05

سفينة قمر الغارقة بعد عودتها من مدينة جيجل

Jean pierre nayneaud, l'expedition ou le roi soleil perdit sa ''lune'', p12

الهوامش

1- جمال قنان، **معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619–1830**، دار هومه، الجزائر، 2010، ص89

2- نفسه، صص 75–76، أبرمت هذه المعاهدة في 19 سبتمبر 1628 «تعتبر ترتيبات هذه المعاهدة تتميما لترتيبات معاهدة سنة 1619، التي تنص على منح حق اللجوء إلى فرنسا للمسلمين الفارين من إسبانيا وممتلكاتها إذ أصبح لا يحق للفرنسيين حجز هؤلاء واسترقاقهم أو ردهم إلى أعدائهم، كما أنه يحق للسفن الحربية الجزائرية تفتيش المراكب الفرنسية مع التزام بعدم التعرض بأذى للملاحين والمسافرين من الفرنسيين الذين يقبلونها ولا يؤخذ منهم أي شيء سواء أمتعة أو مواد تموينية أو معدات حربية كما تعهدت الجزائر بعدم مصادرة بضائع أعدائها المحملة على هذه السفن وإنما يتم استقدامها إلى الجزائر وتدفع عليها الرسوم الجمركية ثم تنقل بعد ذلك إلى جهة ترسل إليها»

3- ولد في سان جيرمان في 5 سبتمبر 1638، وفيسن الخامسة أصبح ملكا بعد وفاة أبيه في14 ماي 1643.

4- عائشة غطاس، **العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619–1694)**، رسالة لنيل شهادة الماجستير تحت إشراف :د.مولاي بلحميسي، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 1984–1985، ص65

5- Vandale (A), L'odyssé d'un ambassadeur, les voyages du marquis de mointel,

1670–1680 2éme editon, plon, paris, 1900, p1

6- Idem, p3

7- يحي بوعزيز،**الموجز في تاريخ الجزائر**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص ص 43–44

8- Paule chevalier, **«Projet pour l'entreprise d'alger»**, Archives curieuse de l'histoire de France depuis 9- Louis 11 jusqu›à Louis 17, tome 10, Blanchet, Paris, 1839, pp 79–88

10- Piacavet, **la diplomatie française au temps de louis 14(1661–1715)**, instituts mœurs et coutumes, Paris, Alcen, 1930, 160

11- Idem, pp 175–179

11- علي خنوف، **تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا**، الطبعة الأولى، منشورات الأنيس، الجزائر، 2007، ص65

12- عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص ص 58–59

13- MoloudGaid, **L'algerie sous les turcs**, 2eme edition, editionsmouni, Alger, 1991, p136

14- علي خنوف، المرجع السابق، ص 65

15- محمد خير فارس، تاريخ **الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، الطبعة الاولىجامعة دمشق، 1969، ص ص 122–124

16- نفسه، ص80

17- قنان جمال، المرجع السابق، ص ص 86–87

18- قنان جمال، المرجع السابق، ص ص325–331

16- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514–1830**، دار هومه، الجزائر، 2012، ص114

20- علي خنوف، المرجع السابق، ص 66

21- جون ب. وولف، **الجزائر وأوروبا 1500–1830**، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، ، عالم المعرفة، الجزائر، 2015، ص315

22- نفسه، ص316

23- شوقي عبد الحكيم، **الإستخبارات الجزائرية في العصر الحديث 897 هـ – 1246هـ / 1492م– 1830م**، الطبعة الأولى، دار هومه، الجزائر، 2017، ص207

24- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص73

25- نفسه.

26- شارل فيرو، **تاريخ جيجلي**، ترجمة: عبد الحميد سرحان، ، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص104.

27- Watbled, **«l'expédition du duc de beaufort contre djidjelli en 1664»**, dans la revue africaine, vol 17, 1873, p218

28- Henri-Delmas de Grammont, **histoire d'Alger sous la domination Turque**, éditions bouchene, 2002, p182.

29- Watbled, Op.cit., pp 219 - 220.

30- RETOUT. A, **Histoire de Djidjielli**, Alger 1927, pp 55–58

31- Watbled, Op.cit, pp 225-228

32- Henri-Delmas de Grammont, Op.cit., p184.

33- جمال قنان، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500–1830**، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، الجزائر، 1987، ص ص 130–133

34- شارل فيرو، المرجع السابق، ص130

35- Œuvres de Louis 14, **lettres particulières**, tome 5, Treuttel et wurtz libraires, Lille, 1806, p270.

36- Œuvres de louis 14, **lettres particulières**, Op.cit., p 267.

37- عائشةغطاس، المرجع السابق، ص 76.

38- جمال قنان، **معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619–1830**، المرجع السابق، ص ص 96–97.

39- نفسه، ص ص 332–336.